الفصل الثالث والعشرون

الحياة الاجتماعية فى عهد عمر

ما أعظم التطور الذى تمَّ فى بلاد العرب خلال السنوات الخمس عشرة التى تلت فتح مكة ! وعظمته تجعلك غير مبالغ إذا لم تُسَمِّه تطوراً ! إنما هى طفرةٌ لم يعرف تاريخ العالم لها نظيراً . فى هذا الزمن الوجيز انتقل العرب من وثنيتهم إلى الإسلام ، ومن تفرُّقهم قبائل وأمماً متنافرة إلى وحدة متضامنة لها سياسة عامة وغرض مشترك ، ومن انكماشهم فى حدود شبه الجزيرة إلى تسلطهم على الإمبراطورية الفسيحة التى جمعت لهم سلطان الفرس وسلطان الروم ، ومن شَظَف البداوة الذى يسود أكثر مَوَاطنهم إلى رخاء لم يألفوه من قبلُ . لا عجب وذلك شأنهم أن تتأثَّر حياتهم الاجتماعية بهذه الانتقالات السريعة وأن تتغيَّر نظرتهم للحياة ومطالبهم فيها .

وذلك ما حدث بالفعل . فقد كان لكل من العوامل التى أدَّت إلى هذه الطفرة أثرهُ فى حياتهم أفراداً وجماعات . كان للعامل الدينى أثره ، وللعامل السياسى أثره وللعامل الاقتصادى أثره. وكانت هذه الآثار متناقضة فى بعض الأحيان ، لكنها تفاعلت واندمجت بعضهـا فى بعض ، فأدّت إلى انتقال فى الحياة الاجتماعية يَلْفِتُ النظر ويدعو للتفكير فيما ترتب عليه من بعدُ فى حياة الإسلام والمسلمين .

يجمل بنا لنقدر مدى هذا التطور أن نرجع البصر إلى ما كان العرب عليه فى حياتهم الاجتماعية قبل الإسلام . لقد كان أكثرهم أهلَ بادية ، وكان الأقلون أهلَ المدن والأمصار. ذلك لأن شبه الجزيرة لم تكن بها أنهار منتظمة الجريان ، ولم تكن أمطارها تهتن فى فصول معينة من السنة هتناً متقارب القَدْر ، بل كانت الأمطار تنهمر سيولا مُخرِّبة أحياناً ، وتكف فصولا متعاقبة أحياناً أخرى ، فلم يكن تنظيم الزراعة ميسوراً إلا فى بعض الأرجاء . من ثَمَّ كانت المدن والأمصار إنما تقوم حيث تغزر الينابيع ، ثم يظل ما وراء ذلك بادية ينبت بها المرعى حين ينزل الغيث ويجف حين يمسك . ولهذا كانت بادية اليمن ، كغيرها من البوادى ، تشمل القسم الأكبر من أهل اليمن ، وإن كانت نسبة حضر اليمن إلى باديته تزيد على نسبة حضر نجد والحجاز وسائر بلاد العرب إلى بواديها.

وأساس الاجتماع فى البادية القبيلة . والقبيلة تتألف من أحياء يربط النسب وتربط

القرابة بين الذين يتألّف الحيّ منهم . وكل أهلٍ فى الحيّ يقيم فى بيت من الشَّعر يسهُل حملُه كلما أرادت القبيلة الظعن تنتجع المرعى لإبلها والرزق لبنيها . وكان أكثر تنقُّل القبائل فى الربيع والصيف ، حين يكثر العُشب والكلأ حول ينابيع المياه الصغيرة فى البادية . فإذا أقبل الشتاء وجفّ المرعى ، تحمَّلوا إلى الحضر فأقاموا على مقربة منه ، يلتمسون عند أهله : بالتعامل معهم أو الغارة عليهم ما يعيشون به عيشَ كَفافٍ يرضيهم ، لأنه يكفل لهم الحرية التى كانت أعزَّ عليهم من طِيِّب الطعام ولُبْس الشُّفوف .

وكان لكل قبيلة شيخها ولكل حيٍّ زعيمه ، ولكل بيت ربه . ورب البيت هو الأب ، فله على كل من فيه سلطة مطلقة . وكان أعظم سلطانه على زوجه : فقد كان مكان المرأة من زوجها مكان الخادم من سيده ، لا رأى لها معه : ولا تستطيع أن ترد له كلمة أو تعصى له أمراً ، وإنما عملها أن تقوم بخدمة البيت ، وأن تزيد فى نسل ربها . ولهذا كان العُقْم أهم أسباب الطلاق . وكان تعدد الزوجات لا حدَّ له حتى يبلغ النسل غاية مداه . ذلك لأن العرب كانوا حريصين أشدَّ الحرص على كثرة البنين ليقووا بهم على حماية القبيلة وحماية الأهل . وأنت تذكر قصة عبد المطلب بن هاشم جدّ النبى حين نذر إن وُلد له عشر بنين ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لَيَنْحَرَنَّ أحدَهم لله عند الكعبة ، وتذكر أنه أدى نذْره ، فافتدى عبد الله بمائة من الإبل .

وكان العرب يؤثرون الزواج من غير قبيلتهم ، لاعتقادهم أن النسل من مثل هذا الزواج أقوى وأزكى ، ولأن الزواج من بنات القبيلة كثيراً ما كان يؤدى إلى التنازع والشحناء . واعتقادهم هذا هو الذى كان يحملهم على إمساك سبيّات الحرب لينسلن لهم ، كما كان أول ما يطلبونه دية قتيل فتاتين من بنات الحيّ الذى منه القاتل ، لا ينزلون عنهما وإن نزلوا عن غيرهما من الإبل والشاء والأموال . مع هذا كان لابن العم أولوية على غيره إذا خطب ابنة عمه ، فلا يستطيع أبوها أن يمسكها عنه ما دفع المهر المتعارف فى القبيلة ، وإن أغلى غيره مهرها أضعافاً مضاعفة . عوف وسعد

كانت خِطْبةُ الشاب الفتاة إلى أهلها ، والتزوج منها بعد مهرها ، ونقلها معه إلى حيه وقبيلته ، هى الصورة المألوفة عند العرب . على أنهم كانوا يألفون صوراً غيرها من الزواج ، بقى بعضها بعد الإسلام ، وعفَّى الإسلام على سائرها . من ذلك أن يتزوّج رجل من امرأة فيذرها فى قومها ، فإذا مر بهم فى تجارته أو رحلاته نزل عندها . وكان بعض النسوة يؤثرون البقاء فى أهلهن إذ كن ذوات مال وحسب ، فكن لا يَرضَيْنَ مفارقة

obeikandi.com

مالهن ومن يقومون على الاتجار فيه وتثميره . وكان الأبناء يبقون مع أولئك الأمهات حتى يشبـون ، ولذلك كانوا ينسبون إليهن وإلى قبيلتهن . وذلك كان شأن سَلْمى بنت عمرو أحد بنى النجار من الخزرج أهل يثرب ، فقد كانت امرأة ذات شرف ومال يتّجر لها فيه قومها . ومر هاشم بن عبد مناف يوماً بيثرب عائداً من الشام ، فرآها تطلّ على قومها ، فأعجبته فخطبها إلى نفسها فرضيته زوجاً ، على أن تكون عصمتها بيدها . . وَوَلَدَتْ له شيبة ، فأقام معها بين أخواله بنى النجار حتى مات أبوه ، ثم عاد به عمه المطلب إلى مكة مردفاً إياه على بعيره . فلما رأته قريش ظنوه عبداً اشتراه فقالوا : « عبد المطلب » ، فغلب عليه هذا الاسم ، ولم يَدْعُه أحد من بعد باسمه « شيبة » .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذا الزواج أصل زواج المُتْعة الذى أبيح فى صدر الإسلام إلى أن حرّمه عمر . ولا يزال زواج المتعة حِلاًّ عند الشيعة إلى اليوم .

وكان للزواج المؤقت صورة أخرى.وكان للمرأة فى هذا الزواج أن تفصم عروته إذا شاءت ، وحَسْبُها لذلك أن تغير موقع الباب من خبائها ليعلم صاحبها أنها لم تبق له زوجاً . ويذكـر ابن بَطُوطة فى رحلته أن مثل هذا الزواج كان باقياً فى أحياء زُبيد حين كان هو فى بلاد اليمن .

ومما يذكره مؤرخو اليمن كذلك أن المِلْك كان مشاعاً بين أفراد الأسرة فى عهد من العهود ، وأن المرأة كانت بعض هذا الملك المشاع ، فكانت زوجاً أو خليلة لأفراد الأسرة جميعاً . فإذا دخل أحدهم خباءها لوطر ركز عصاه عند الباب ، فلا يفتحه عليه أحد ، ولكن مبيتها كان مع رب الأسرة دائماً . مع ذلك كان زنا هذه المرأة مع أجنبى جريمةً عقابُها الموت . ومما يروى فى ذلك أن ابنة أحد الأمراء كانت فى أسرة متاعاً لأهلها ، وأنها أحبَّت شاباً من غير أبناء هذه الأسرة ، فكانت كلما جاءها ركزت عصا عند الباب حتى لا يفاجئها أحد متلبسة بجريمتها . واجتمع رجال الأسرة كلهم يوماً ، فرأوا العصا المركوزة عند الباب ، فعرفوا ما أتت الفاجرة فجزَوْها به .

وقد يبدو هذا النوع من الزواج عجباً ، وأعجب منه نكاح الاستبضاع ، ذلك حين كان الزوج يدع زوجته لغيره ، حتى إذا حملت ردَّها ونسب حملها إليه . ولعلهم لم يكونوا يلجئون لهذا المنكر إلا لعُقْم الرجل وحرصه على الولد . على أنه قد كان له فى التبنى مندوحة عن مثل هذا الأمر ، فقد كان العرب يجيزون تبنّى البنين دون البنات ، وكانوا يجعلون للمتبنَّى مقام الابن فى الانتساب إلى من تبنَّاه وإلى قبيلته ، ويبلغون به أحياناً أن يجعلوا له

حق الاشتراك فى الميراث على سواء مع أبناء الرجل من صُلبه . ومهما يكن إنكارنا لهذا النكاح ، وإنكار الإسلام له وللتبنّى جميعاً ؛ فالمؤرخون يذكرونه على أنه بعض عادات العرب فى الجاهلية .

ذكرنا هذه الصور من الزواج لما فيها من دلالة على امتهان المرأة عند العرب . والحق أن مكانتها كانت أدنى إلى مكانة الرقيق . وحَسْبُك شاهداً على ذلك أن وارث رب البيت ، أباً كان أو أخاً أو ابناً ، كان من حقه أن يذهب إلى الأرملة فيلقى عليها رداءه و يمهرها فتصبح له زوجاً ، كما كان له أن يزوجها من غيره إذا شاء ويقبض مهرها . ولم يكن للمرأة مفرٌّ من هذا المصير إلا إذا رجعت إلى أهلها قبله ، عند ذلك يرجع الأمر فى زواجها إليها أو إلى وليّها .

ولم يكن للمرأة رأى فى فصم عروة الزواج إلا فى زواج المتعة وهو الزواج المؤقت ، أما غيره فكانت عروة الزواج تنفصم بالخُلْع أو بالطلاق . وكان الخلع يتم باتفاق بين الزوج وولىّ الزوجة . ولم يكن الطلاق يقع إلا إذا ذكره الزوج ثلاث مرات توكيداً لنيته فيه .

وكانت المرأة لا ترث ، أمًّا كانت أو زوجاً أو بنتاً أو أختاً أو ذات رحم . ذلك لأن العرب كانوا يقولون : إنما يرث من طاعن بالرماح ، وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة . أما البنون فكانوا يرثون حصصاً متساوية ، وكل ما للأكبر منهم من امتياز على إخوته أنه كان يدعى لاختيار النصيب الأول .

كان سلطان الرجل على زوجه ما رأيت ، وكان سلطانه على بنيه عظيماً ، وعلى بناته أعظم . فقد كان الرجل فى بعض القبائل يئد ابنته خوف العار أو المتربة ، فإذا وأدها لم يسأله أحد حساباً ولم يكن للبنت ولا لأمها رأى فى زواجها ، بل كان الرأى للأب وحده وكان عليه لذلك أن يحميها بعد أن تنتقل إلى بيت زوجها ، فى قبيلتها كان هذا البيت أو فى قبيلة غيرها . فإذا أساء زوجها إليها أو طلقها ، رجعت إلى بيت أبيها وعاشت فى كنفه ورعايته . أما الابن فكان يختار من يخطبها ، ثم يحرص على أن ينال رضا أبيه عن خطبته . فإذا استقلّ بعد زواجه ببيت كفَل لامرأته فيه معيشتها ، ضَعُفَ سلطانُ أبيه عليه ، وإذا بقى معها فى بيت أبيه ، فلأبيه عليه سلطان مطلق .

هذه صورة موجزة من نظام الأسرة والأهل فى البادية . وقد كانت فى جملتها صورة لنظام الأسرة والأهل فى المدن والأمصار العربية ، فقد كان أهل هذه المدن والأمصار قبائل كأهل البادية سواء ، وكان أكثرهم يمتون بأصلهم إلى البادية ، ثم هوت نفوسهم

obeikandl.com

إلى حياة الحَضَر فركنوا إليه واستقروا به . ولعلك وقد ألممت بها تجد من آثارها ما لا يزال باقياً إلى اليوم فى حياة البدو حيث كانوا ، وإن كان الإسلام قدعفّى على الكثير منها . بل إنك لتجد بعض هذه الآثار فى حياة من ينتسبون إلى العرب من أهل الحضر فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى تتكلم العربية . فكثيرون يَحْرمون بناتهم من الميراث ، وينظرون إليهن نظرة تجعل ما للرجال عليهن من درجة فسيحَ المدى يكاد يبلغ ما كان مألوفاً فى البادية قبل الإسلام . وكثيرون لا يُقيمون لرأى البنت ولا لرأى أمها وزناً فى زواجها . ولا تزال البنت تأوى إلى بيت أبيها إذا مات عنها زوجها أو طُلِّقت أو أُسيئت معاملتها . وسلطة الأب على أبنائه الذين يقيمون معه لا تزال عظيمة ما كانوا غير قادرين على الكسب .

كان العرب من أهل البادية ومن أهل الحضر يتشابه عندهم نظام الأسرة والأهل لكنهم كانوا يختلفون اختلافاً كبيراً فى أسباب العيش وما نسميه اليوم النظام الاقتصادى . فأهل الحضر كانوا يعتمدون فى عيشهم على التجارة وعلى ما يزرعه لهم الفلاحون فى الحدائق والكروم والمزارع المحيطة بهم والمملوكة ملكاً خاصاً لهم ، وكان ربحهم من تجارتهم ومن زراعتهم غير قليل . وكان كثيرون منهم يُقرضون أموالهم لمن يريد أن يتجر فيها أو أن يثمّرها لقاء فوائد فاحشة تضاعف ما أقرضوا فى زمن قصير . هؤلاء جميعاً كانوا يعرفون من مُتَع الحياة وأنعمها مالا يعرفه أهل البادية . كانوا يعرفون مجالس الشراب والغناء والميسر ويتوفرون عليها . وكانوا يجدون فى إشباع شهواتهم ما يرضيهم عن الحياة ويزيدهم اطمئناناً لها . لكن ابن خلدون يبالغ إذ يقول عنهم إنهم : « قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخُلُق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من فنون الملاذ وعادات الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على حب المال والكذب والشهوات ، حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم ، فكان الكثير منهم يقذعون فى أقوال الفحشاء فى مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم ، لا يصدّهم عن ذلك وازع الحشمة لما أخذتهم به عادات السوء من التظاهر بالفواحش قولا وعملا . وعلى الجملة فهم أهل غدر وخديعة ونقض عهد » . ولقد كانت لهم من غير شك فضائل ومزايا ، ولولا ذلك لبارت تجارتهم ، ولما استطاعوا مقاومة الطبيعة القاسية المحيطة بهم . لكنهم كانوا تجّاراً أولى حيلة ، وكانت الحيلة تدفعهم إلى بعض ما يروى ابن خلدون من نقائصهم ، فقد كانت أرباحهم من التجارة ومن الربا تيسّر لهم الانغماس فى الملذات ، والاستهانة بكثير من فضائل الخلق الكريم .

أما عيش البادية فكان قِوامه انتجاع المرعى ، والانتفاع بلحوم الإبل وألبانها ، ولم يكن البدوىّ يملك لنفسه غير بيت الشعر الذى يُقيم فيه ، وما قد يغرس حوله من غلال وفاكهة . فقد كانت القاعدة أن الزرع لمن زرعه . على أن هذا المِلك كان قليل الشأن ، فقد كان البدو يعافون الزراعة ويرون الفلاحة دون ما يليق بهم . فأما ما كان يُحيط بمنازل القبيلة من المرعى فكان ملكاً مشتركاً للقبيلة ، وكذلك كان الكلأ الذى تنبته الصحراء فى حمى تلك المنازل . وكان للقبائل المتجاورة حق تبادل المرعى فى مقابل .

وكانت منازل القبائل محدودة بالعرْف والاتفاق . فإذا أجدبت قبيلة فانتجعت المرعى بعيداً عن منازلها ، لم يَجُزْ لغيرها من القبائل أن يحل محلها فيها أو يتعرض لقتال أهلها وأصحابها . ونحن لذلك نستطيع أن نتعرّف منازل أهل هذه القبائل إلى وقتنا الحاضر على الخرائط الجغرافية . على أن مثل هذا العدوان وما يجرّ إليه من قتال بين القبائل لم يكن نادراً ، بل كان مألوفاً فى حياة الجاهلية . لذلك كان البدوىّ محارباً بنشأته ، وكانت حياة القبائل فى كثير من الأحيان حياة غزو وانتهاب ، فكانت الغارات وانتهاب الأسلاب والفِرار بها إلى المضارب من مألوف أهل البادية . فإذا رجعت القبيلة من غزوها أقامت فى مضاربها على حَذَرٍ تنتظر أن يُغير عليها غيرها ليثأر لنفسه منها أو يسلب مالها مثلما سلبت هى غيرها ماله . وذلك قول ابن خلدون فى أهل البادية إنهم « أهل انتهاب وعبث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مناسبة وركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم بالقفر . ورئيسهم محتاج إليهم غالباً للعصبية التى بها المدافعة . فكان مضطرًّا إلى إحسان ملكتهم وترك مُرَاغمتهم لئلا يختلّ عليه شأن عصبيَّته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم » .

وطبيعىٌّ أن يزيد الخوف من الثأر والغارات تضامن القبيلة ، وأن يدفع رجالها لتعزيزه بذكريات الماضى وما كان لأسلافهم فيه من بطولة وإقدام . وذلك هو السر فى حرصهم على معرفة أنسابهم ، يفاخرون بها غيرهم ، ويقوون تضامنهم ، ويرتفعون إلى أسلاف اشتهروا بالشجاعة والكرم وحماية الجار وما إليها من صفات غرستها هذه الحياة فيهم ، وجعلتها بعض شمائلهم وسجاياهم . وكان حتماً على أبنائهم أن يقتدوا بهم فى هذه الصفات فهى وحدها التى تجعل عيش البادية مستطاعاً . فابن البادية معرَّض لغارة غيره عليه . وعيش البادية عيش شظف يبلغ الفاقة أحياناً . فإذا لم يكن أهلها كراماً يؤوون الضيف ، ويحمون الجار ، تعرَّض كثيرون للهلاك . وحياة البادية حياة مغالبة للطبيعة ومقاومة للمعتدين ، فإذا لم يكن أهلها شجعاناً ذوى حيلة وجَلَد ناءوا بعبء الحياة ، وإذا لم يكن لهم من الدعاية

ما يجعل غيرهم يخشاهم تعرضوا للشر . ولذا كان أكثر شعرهم ونثرهم فى الفخر والحماسة وذكر الكرم ، والتحدّث عن شتّى الفضائل التى توجبها هذه الحياة وتدفع أهلها للحديث عنها .

لم يكن العرب يثأرون من المعتدين على منازلهم فحسب ، بل كان الثأر للنفس وللمال وللعرض وللإهانة ولكل ما يوجب الثأر نظاماً قائماً بينهم . وكانت القبيلة ترى واجباً عليها أن تثأر لكل واحد من بنيها . فإذا قُتِل رجل منهم حمل أبناؤها كلهم السلاح حين تدوّى بينهم صيحة أهل المقتول : « يالثارات العرب ! » وكان الأمر كذلك بخاصة إذا كان القاتل من قبيلة أخرى . فإذا كان منزل القاتل قريباً أحرق ، وقتلت إبله وأغنامه ، وأبيحت كل حرماته ثلاثة أيام كاملة . وفى هذه الحال لم يكن لقبيلة القاتل أن تؤاخذ أولياء الدم وقبيلتهم بما صنعوا . على أن القاتل كثيراً ما كان يلجأ بعد ارتكاب جريمته إلى من يجيره ويستطيع منعه . فإذا استجار وأجير وجبت عليه الدية . وقد جرت العادة فى الدية بأن يطلب أصحاب الثأر من أهل القاتل بنات وإبلاً وأموالا ، وأن يبدأ أهل القاتل بالقبول ، ثم تجرى مساومات ينزل صاحب الثأر على أثرها عن الكثير مما طلبه . لكنه لم يكن ينزل أبداً عن أن تكون فى الدية فتاتان من حى القاتل ، يأخذهما لنفسه ، أو يهبهما لمن يشاء .

فأما الثأر للعرض وللإهانة فكان يؤدِّى أغلب الأمر إلى قتال بين القبائل يطول أمده سنين متعاقبة . فإذا كانت القبيلة الطالبة للثأر أضعف من أن تثأر لنفسها ، عرضت على أحياء العرب ما لحقها من هضم حقوقها وعدوان على كرامتها ، واستَعْدتْ غيرها من القبائل المجاورة أو المحالفة لها لتنهض معها فى ثأرها . والمحالفات لهذا الغرض كانت مألوفة . ولعلك تذكر حِلْف الفضول الذى اشترك فيه محمد قبل بعثه ، إذ تعاهدت قبائل مكة وتعاقدت ليكُونُنّ مع المظلوم حتى يُؤدى إليه حقه . وكانت غزوة الأحزاب للمدينة بعد هجرة الرسول إليها نتيجة التحالف بين يهود المدينة وقبائل مكة وغيرها من قبائل العرب . ومثل هذه المحالفات كانت كثيرة فى الجاهلية . وأخبارها لذلك مستفيضة فى كتب التاريخ وكتب الأدب .

من شأن حياة الثأر والغزو والمغامرة أن تدعو إلى التفاؤل وإلى التطيُّر . يتفاءل الظافر إذا أدّى إلى ظفره أمر لم يكن فى حسبانه ، ويتطيّر المقهور لمثل هذا السبب . والعرب كانوا أكثر الأمم تفاؤلا وتطيراً . ولم يكن ذلك شأنهم فى أمر القتال وحده ، بل كان كذلك فى كل شئون الحياة . وإن بعض المؤرخين لينسبون تسمية العرب أبناءهم بأسماء

الحيوان إلى تطيرهم وتفاؤلهم . فيذكرون أن أحدهم كان إذا أنجب أبناء فماتوا ثم ولد له ولد ، أطلق عليه اسم حيوان كثعلب أو ثور أو كلب أو ذئب أو فهد أو أسد . ويذكر هؤلاء المؤرخون أن نسبة كثير من القبائل إلى أسماء الحيوان ترجع إلى أن جدها الأعلى أطلق عليه اسم هذا الحيوان تحرزاً من الموت . فإذا صح هذا التعليل وجب إطلاقه على غير العرب أيضاً ، فتسمية الناس بأسماء الحيوان أمر حادث فى الأمم كلها . ونسبة الأسر إلى الثعلب أو الذئب أو غيرهما من الحيوان بعض ما نجده عند الإنجليز والفرنسيين والألمان وغيرهم . وقد يكون مرجعه إلى تطيرهم وتفاؤلهم كمرجع مثله عند العرب .

كانت عبادة الأصنام والاستقسام عندها بالقِداح مما زاد فى تطير العرب وتفاؤلهم . فقد كان أحدهم إذا أراد أمراً جاء بأزلام الاستخارة ، وهى قطع من خشب أو حجر كُتب على أحدها « آمر » ، وعلى الثانى « ناه » وتُرك الثالث غُفْلا ، ثم خلطها فى حمى صنم كُهبَل ، وأخرج منها واحداً ، فإذا خرج الآمر أقدم على ما عزم وإذا خرج الناهى أحجم ، وإذا خرج الغُفْل استأنف الخلط والاستقسام . وكان اعتقادهم أن الصنم الذى يعبدونه ويستقسمون عنده هو الذى يخرج الأزلام على النحو الذى تخرج به ، ولذلك كانوا يطيعونها على أنها آية آلهتهم وأمرها .

وكان لكل قبيلة ، بل لأهل كل دار ، صنمٌ يعبدونه . فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع أن يتمسح به ، وإذا قدِم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل داره أن يتمسَّح به أيضاً . ويذكر ابن الكلبى فى كتاب الأصنام أن عبادة الأوثان والحجارة ترجع إلى « أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة . فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة . . . ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ، فعبدوا الأوثان » . وكذلك اتخذت القبائل الأصنام ، فاتخذت هُذَيْل بن مُدْركة سُوَاعاً بأرض يَنْبُع ، واتخذت كَلْبٌ وَدًّا بدُومة الجندل ، واتخذت همدان ومن والاها من أرض اليمن يَعوق وكان بقرية يقال لها خَيْوان من صنعاء على ليلتين بسير الإبل مما يلى مكة . واتخذت حِمْير نَسْراً فعبدوه بأرض يقال لها بَلخع ، واتخذت مَذْحِج وأهل جُرَش يَغوث . . . وهذه الأصنام هى التى نزل فيها قوله تعالى : (وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً . وَقَدْ أَضلوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلا ضَلاَلا) (١) .

---

(١) آية ٢٣ وما بعدها ، سورة نوح .

وكانت مَنَاةُ من أقدم أصنام العرب . وكانت منصوبة بقُدَيْد بين مكة والمدينة ، وكانت العرب جميعاً تعظّمها وتذبح حولها . وكانت اللات صنم الطائف ، وكانت صخرة مربعة بَنَى عليها سَدَنَتها من ثَقِيف بناء زاد فى إعظامها . أما العُزَّى فكانت فى بيت بواد من نخلة ، ويقال إنهم كانوا يسمعون فيه الصوت ، وكانت قريش تقول عن هذه الأصنام الثلاثة ؛ إنهن بنات الله تعالى وإنهن يشفعن إليه . وذلك قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالعُزى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخرى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى .تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)(١) .

وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة ، وكان أعظمها عندهم هُبَل . وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ؛ ولذلك جعلت له قريش يداً من ذهب . وكان إساف ونائلة صنمين عند الصَّفا والمروة . هذا إلى أوثان أخرى ذكر ابن الكلبي أكثرها فى كتاب الأصنام ، وذُكر سائرها فى تاج العروس وفى مروج الذهب وفى غيرهما من كتب المؤرخين .

ولم يكن العرب يُنكرون وجود الله حين يعبدون الأصنام ، بل كانوا يُشركونها معه جل شأنه ويتخذونها إليه زُلْفَى . ولهذا كانوا يذكرون الله فى تلبيتهم حين حجهم الكعبة ويذكرون الأصنام على أنها شركاؤه . فكانت بعض القبائل تقول : « لَبَّيكَ اللّهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلاّ شريكٌ هو لك ، تملكه وما ملك » . وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : « واللاَّت والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العُلاَ ، وإن شفاعتهن لترتجى ! » . وفى ذلك يقول الله تعالى : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

هذه صورة مجملة من عقائد العرب وعاداتهم فى حياتهم الاجتماعية قبل الإسلام . ومن اليسير أن تُدرك ما قضى عليه الإسلام منها . والشرك هو بطبيعة الحال أول ما تحطَّم فى النفس العربية أثره . فقد سمع العرب من آيات الوحى فيه ما جعلهم بعد إسلامهم ينكرونه أشدَّ إنكار . سمعوا قوله تعالى : (وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَاداً لِيُضلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، قلْ تَمَتَّعُوا فإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار) (٢) ، وقوله : (يأَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونَ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوه مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (٣) . وقوله : (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

(١) آية ١٩ ومابعدها ، سورة النجم .

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٠

(٣) سورة الحج آية ٧٣

دونه لاَ يَسْتَطِيعُون نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرون . وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُون)[١] . وقوله : (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً . .)[٢] . وقوله : (قُلْ أَرَأَيْتُم شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ، بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُروراً)[٣] وقوله : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)[٤] . وقوله : (فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[٥] سمع العرب هذه الآيات وسمعوا غيرها عشرات من مثلها ، فمحت كل أثر للشرك فى نفوسهم . ولذلك رأينا الذين ارتدّوا والذين تنبّأوا حين وفاة النبى ، لا يُشرك أحد منهم بالله ، وإنما يزعم كل متنبئ أنه نبىٌّ لقومه ، وأن محمداً كان نبياً لقومه . فلما قُضى على الردَّة آمن العرب كلهم بأنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

كان لهذا القضاء على الشرك أثرٌ عميق فى النفس العربية ، وفى الحياة الاجتماعية العربية . لم يبق لمسلم ولىٌّ من دون الله ، بل أصبح ولاؤهم جميعاً له جلَّ شأنه . ولم يبق لمسلم أن يستقسم بالأزلام أو أن يستخير الأصنام ، وإنما يستخير الله وحده . عليه يعتمد ، وإياه يستعين ، وإليه يركن ، وهو الذى يهديه سبيلَه . بذلك تحرر العقل العربي وتحرر الضمير العربى من رقّ الوثنية ، وأصبح هذا العقل وهذا الضمير هما اللذان يوجِّهان صاحبهما فيما يعزم القيامَ به أو الإحجام عنه ، وبذلك أصبحا دون سواهما وساطة المرء إلى ربه ، ولذلك لم يبق للتفاؤل ولا للتطير موضع ، ولم يبق لسوانح الطير ولا لبوارحها أثر فى إرادة الإنسان ، ولم يبق لأحد أن يقرأ فى النجوم مصاير الأفراد والأمم ؛ فإنما يجرى كل شىء فى الكون وفاق سُنّة الله . ولن تجد لسنة الله تحويلاً ولا تبديلاً .

---

(١) سورة الأعراف آيتا ١٩٧ ، ١٩٨

(٢) سورة الكهف آية ١٠٢

(٣) سورة فاطر آية ٤٠

(٤) سورة التوبة آية ١١٣

(٥) سورة التوبة آية ٥

تحرر العقل العربي من رقّ الوثنية ، وآمن بالله خالق كل شيء ، وتحرر بذلك من رق الوهم والعبودية لكثير من الشعائر التى فرضتها عليه الجاهلية ، فتفتَّح للنظر فيما جاء من عند الله وتهيأ للأخذ به . وكان لهذا التحرر أثره العظيم فى الحياة الاجتماعية ، كما كان له أثره العظيم فى الحياة الدينية .

وكان أعظم أثره فى الحياة الاجتماعية أن تغيَّرت نظرة الرجل للمرأة ؛ فقد سوَّى الوحى بين الجنسين ووجّه القول للمؤمنين والمؤمنات ، وللمشركين والمشركات ، وتحدث عن النساء فى رفق وإكرام ، وجعل لهن مثل الذى عليهن بالمعروف . قال تعالى : (أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثى) [١] . وقال : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً) [٢] . وقال : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [٣] . وقال : (وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ) [٤] . وقال : (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحساناً ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) [٥] . كانت هذه الآيات والكثير من مثلها نغمة جديدة على السمع الجاهلى . المرأة والرجل متساويان أمام الله ، تُجزى كما يُجزَى ، وتثاب كما يثاب . هذا أمرٌ لم يسمع به العرب فيما بينهم ، ولم يسمعوا بشيء من مثله عند جيرانهم من الفرس والروم . لكنه مع ذلك أمر هذا الدين الجديد الذى أوحى إلى النبي العربي ، وقد أوجب على كل مسلم أن يؤمن به وأن يتّبعه .

وكان لهذا الأمر أثره فى صِلات ما بين الزوج وزوجه ، والأب وابنه ، والأخ وأخيه لم تبق الزوج مقام الخادم أو الرقيق ، بل أصبحت شريكة زوجها فى الحياة ، لها على زوجها ما للشريك من حق على شريكه . فالله تعالى يقول : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) [٦] .

---

(١) آية ١٩٥ سورة آل عمران

(٢) آية ١٢٤ سورة النساء

(٣) آية ٩٧ سورة النحل

(٤) آية ٦ سورة الفتح

(٥) آية ٢٣ وما بعدها سورة الإسراء .

(٦) آية ٢١ من سورة الروم

ولم يبق لرجل أن يكره فتاته ، أى أمَته ، على أن تتَّجر فى ذات نفسها ليكسب المال ، وهو جلَّ شأنه يقول : (وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا)(١) . ولم يبق لرجل أن يضيق ذرعاً بابنته أو أن يئدها خوف العار أو المتربة والقرآن ينكر ذلك فى قوله تعالى : (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)(٢) . وفى قوله تبارك وتعالى : (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ وإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ للرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)(٣) . ويقسم بالموءودة فيقول : (وَإِذَا المَوْءُدَةُ سُئِلَت . بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)(٤) . هذه الثورة على العادات الموروثة جديرة بأن تؤدى إلى انقلاب اجتماعى فى أساس الحياة العربية ينتظم البادية والحضر جميعاً . وهى ثورة نزل بها الوحى على رسول الله ، فهى أمر الله لا مردَّ له ، ولا مفرَّ من النزول على حكمه .

ولا ريب أن هذه الثورة كانت أعنف فعلاً فى نفوس العرب من الثورة العقلية التى انتهت إلى تحطيم الأصنام ، ونفى الشرك ، وتوحيد الله . فقلوبنا وعقولنا تُسرع إلى الحرية تستضىء بنورها ، متى حُطِّمت من حولها الأغلال التى تقيِّدها . والأمر كذلك ما كان مقصوراً على تفكيرنا وعلى عقائدنا الذاتية ؛ فإذا امتد الأمر إلى سلطاننا فى الحيـاة وصـلاتنا بغيرنا فلشَدّ ما نتردد فى الإذعان له والتسـليم به . وإذا سلّمت عقولنــا حاوَلنــا مع ذلك أن نستبقى سلطاننا أو نستردّ ما ضاع أو نقص منــه ؛ لأن شهواتنا تحملنا على ذلك حملاً وتدفعنا إليه دفعاً . ومهما يَسْمُ العقل على الشهوة ، ومهما يستطيع التحرر لإدراك المعانى العليا ، فللغريزة التى تستند إليها الشهوة حكمها . ولا أدلّ عـلى ذلـك فيما نحن بصـدده مـن حديـث لعمربن الخطــاب نفسه . روى مسلم بإسناده أن عمر قال : « والله إنْ كنا فى الجاهلية لا نَعُدّ للنساء أمراً حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقَسَمَ لهن ما قسم . فبينما أنا فى أمر آتمره إذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ فقلت لها : ومالك أنت ولما ههنا ، وما تكلّفك فى أمر أريده ! فقالت لى : عجباً لك يا بن الخطاب ! ما تريد أن تُراجَعَ أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظلّ يومَه غضبان ! قال عمر : فآخذ ردائى ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة فقلت لها : يا بنية ، إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه

---

(١) آية ٣٣ سورة النور

(٢) آية ١٥١ سورة الأنعام

(٣) آية ١٦ وما بعدها سورة الزخرف

(٤) آية ٨ وما بعدها سورة التكوير .

وسلم حتى يظلَّ يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه ! فقلت : تعلمين أني أحذِّرك عقوبة الله وغضب رسوله . يا بَنيَّة لا يغرنّك هذه التي قد أعجبها حسنها وحبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها ! ثم خرجت حتى أدخل على أمّ سلمة لقَرابتي منها فكلّمتها ، فقالت لى أم سلمة : عجباً لك يا بن الخطاب ! قد دخلت فى كل شيء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه ! قال عمر : فأخذتنى أخذاً كسرتنى به عن بعض ما كنت أجد فخرجتُ من عندها » .

جرى هذا الحديث بين عمر وحفصة وأمّ سلمة فى السنة التاسعة من الهجرة ، بعد أن أنزل الله تعالى فى النساء ما نزل وقسم لهن ما قسم . فإذا كان ذلك شأن عمر ، وهو من هو قرباً من رسول الله وامتثالاً لتعاليمه ، فما بالك بغيره من العرب المنتشرين فى شتى الأرجاء من شبه الجزيرة ! لا شك أنه كان بينهم وبين أزواجهم وبناتهم وذوى قرابتهم مثل الذى كان بين عمر وابنته وأم سلمة أو أعنف منه . ولا شك أن النساء قد أصررن على ما فرض الله لهن من حق لم يكن للرجال أن ينكروه عليهن أو يناقشوهن فيه وقد آمنوا بالله وكتابه ورسوله .

إذا كان هذا أثر الانقلاب الذى أحدثته مساواة المرأة بالرجل فى المركز الإنساني ، فأحر بالأمر أن يكون أشدّ عنفاً حين قرر الإسلام للمرأة حق الإرث الذى أنكرته عليها الجاهلية ، وحين حدَّ الإسلام ما كان مطلقاً من تعدد الزوجات فقصره على أربع ، ثم آثر الزوجة الواحدة إذا خيف عدم العدل. فالمساواة فى المرتبة الإنسانية وفى مثوبة المرأة وجزائها فى الآخرة أدنى إلى الاعتبارات المعنوية . ولا ضير على الرجل أن تكون بينه وبين زوجه مودّة من جانبها ، ورحمة من جانبه . ولا ضير عليه أن يوصى الله الإنسان بوالديه ؛ ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَىَ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ ﴾ (١) . فأما أن ترث المرأة فتشارك الرجل فيما ترك المورِّث ، والرجل هو الذى يطاعن بالرماح ويحمى الحوزة ويحوز الغنيمة ، فذلك يمس ما يسميه بعضهم اليوم « الحقوق المكتسبة » مساساً مباشراً ويمس المنافع المادية فى صميمها . والأكثرون من الناس أشدّ تعلقاً بالمنافع المادّية وحرصاً عليها منهم على كل ما سواها .

ومثل هذا كان الشأن فى قصر تعدد الزوجات على أربع ، وإيثار الزوجة الواحدة فى قوله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا

(١) آية ١٤ سورة لقمان

فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذلكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) (١) . فما قررته هذه الآية يتفق مع المركز الإنساني الذى جعله القرآن للمرأة . لكنه مع ذلك حدٌّ مما كان مباحاً للعرب فى الجاهلية . وقد قرره الإسلام فلم يكن مفرٌّ لمن أسلم من اتّباعه .

وإنما هوَّن على العرب أن يُذعنوا لما نزل من هذه الأحكام فى شأن المرأة حين رأوه تعالى يقول : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) (٢) ، ويقول : (وَاسْتَشْهِدوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُما فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى) (٣) . وحين جعل للذكر مثل حظ الأنثيين فى الميراث . فهذه الآيات تفتح باباً لمن استعز بأرائه القديمة ، وإن لم تفتح هذا الباب إلا قليلاً ، ولم تفتحه إلا لأنها ألقت على الرجل أعباء الإنفاق على أسرته والدفاع عن دينه ووطنه جهاداً فى سبيل الله .

كان ما نزل فى النساء من هذه الآيات وأمثالها جديراً بأن يؤدى إلى انقلاب اجتماعى خطير فى الحياة العربية . فالمرأة أساس الأسرة ، والأسرة أساس القبيلة والأمة والاجتماع كله . واحترام الرجل للمرأة واشتراكها معه فيما تؤهله لها طبيعتها من شئون الحياة ، يدفع إلى الحياة روحاً وقوة لا سبيل إليهما إذا هى عوملت معاملة الرقيق وأقصيت عن كل شركة فى شئون الحياة . هذا إلى أن إكرام المرأة يسمو بالفن الجميل إلى ذرًى يقصُر دونها إذا هى حُبست فى حدود أنها متاع الرجل وخادم بيته . ولعلك تلحظ ذلك فى الشعر الجاهلىّ ؛ فأكثر ما فيه عن المرأة يضعها موضع المتاع ، ولا يجعل لها مكاناً من قلب الرجل أو من تقديره إلا فى حدود هذا المتاع . والمعلقات السبع تشهد بهذا وتؤيده . وأنت تذكر أن نساء قريش خرجن مع مقاتليها للثأر من هزيمة بدر ، فلما التقوا هم والمسلمون فى أُحُدٍ ، كنَّ يحرضن الرجال فيقلن :

إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ ونفرش النَّمارِقْ
أَو تُدْبِرُوا نُفَارِقْ فراقَ غيرِ وامِقْ

فلم يكن الظفر بالعدو ، إعزازاً للوطن وثأراً للكرامة ، جزاءً كافياً لأبطال قريش فى نظر نسائها ، بل كان عناقهن الرجال وفرشهن النمارق لهم جزاء أوفى لمن أقبل ، وكان فراقهن الرجال عقاباً أنكى لمن أدبر ونكص على عقبيه . ولو أن علاقة الرجل والمرأة

---

(١) سورة النساء آية ٣ (٢) سورة النساء آية ٣٤ (٣) سورة البقرة آية ٢٨٢

لم تُقْصرَ على المتاع كشأنها فى الجاهلية ، بل قامت على المودة والرحمة على ما جاء فى القرآن ، لكان لنسوة قريش غير هذا الرأى فى مثوبة أبطالها وفى عقابهم .

لم يكن الانقلاب الاقتصادى الذى جاء به القرآن دون الانقلاب الاجتماعى أثراً . فقد كان للأغنياء من التجّار والمرابين ومن إليهم مكان فى الجاهلية يتطلع إليه الفقراء والعمال بعين الإكبار ، وإن لم يحملهم الإكبار على النزول عن حريتهم وأنفتهم . وكان الأغنياء لذلك إذا أعطوا فقيراً أعطوه مُشفقين ، ثم منّوا بإشفاقهم منّهم بعطائهم ، واتخذوا العطاء وسيلة ترتفع بها مكانتهم بين الناس فوق رفعتها .

قاوم الإسلام هذه النزعة الأنانية لأول ما نزل الوحى . قاومها بتقرير مبدأ الإخاء والمساواة بين الناس ، وبالتثريب على الأغنياء الذين يُتبعون صَدَقَاتهم بالمَنّ والأذى ، وبتقرير الزكاة فريضة على الأغنياءُ للفقراء . قال تعالى : (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غنىٌّ حَلِيمٌ . يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا لا تبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ والأَذَى) [1] . وقال : (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ ، وإِنْ تُخْفُوهَا وتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) [2] . وليست الصدقة فضلا للغنى على الفقير ، بل هى حق فى مال الغنى للفقير . وذلك قوله تعالى : (إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَراءِ والمَسَاكِينِ والعامِلينَ عَلَيْهَا والمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ والغَارِمِينَ وفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) [3] . وهى حق للفقير يساوى حق الأبوين فى مال ابنهما إذا احتاجا . وذلك قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ ماذَا يُنْفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى والمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ) [4] .

هذا توجيه جديد من اليسير عليك أن تقيم على أساسه مذهباً كاملاً للاشتراكية الإسلامية . وهو توجيه لم يكن مألوفاً بين العرب بمثل هذه القوة . فالناس فى كل العصور يتحدّثون عن الإحسان وعن العطاء على أنهما فضل ممن أعطى ، وليسا حقاً لمن أخذ . أما القرآن فيعتبرهما حقاً هو وحده الذى يطهِّر مال الغنىّ مما يخالطه من الإثم . لذا كان لهذه النغمة أثرها القوى فى انتشار الإسلام أوّل نزوله ، وكان لها أثرها من بعدُ فى تطور الجماعة الإسلامية هذا التطور السريع الذى رأيت .

أما الربا فقد حاربه الإسلام حرباً عَواناً . وَحَسْبُك لتَقْدُرَ ذلك أن تذكر قوله

---

(١) سورة البقرة آيتا ٢٦٣ ، ٢٦٤

(٢) سورة البقرة آية ٢٧١

(٣) سورة التوبة آية ٦٠

(٤) سورة البقرة آية ٢١٥

تعالى : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ واللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (١) . وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ﴾ (٢) . بل لقد اعتبر القرآن الربا أكلاً لأموال الناس بالباطل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِم أَمْوَالَ النَّاس بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكافِرِينَ مِنْهُم عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٣) . أما وقد كان الربا مشاعاً فى الجاهلية فحرمه الله ، فقد وجب ألا يأخذ أحد ما تعاقد عليه منه . وذلك قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا فَأْذَنوا بِحَرْبٍ منَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمون ﴾ (٤) .

كان لهذا التنظيم الاقتصادى أثره فى الحياة الاجتماعية . وكان هذا الأثر قوياً عميقاً زاده عمقاً وقوة أنه لقى التأييد الحارّ من جانب الكثرة الكبرى من المسلمين . ولذا ظلّ المسلمون ينكرون الربا بكل ما أوتوا من قوة إلى هذا العصر الأخير .

اقترن الانقلاب الدينى والانقلاب الاجتماعى فى بلاد العرب بالانقلاب السياسى الذى أدّى إلى وحدتها بعد شتات ، وبالتوسع فى الفتح توسعاً رأينا أىّ مدًى بلغ فى عهد عمر . وقد تضافرت هذه العوامل فنقلت العرب ، فى حياتهم العمرانية وفى حياتهم الاقتصادية ، نقلة لم تدُرْ لهم ولا لآبائهم بخاطر . فقد انتقل الألوف وعشرات الألوف من أهل البادية إلى حضر الشام ، وأقام الكثيرون منهم بين الرياض والغياض فى دمشق وحِمْص وقِنَّسرين والمدائن والكوفة والبصرة وفى غير هذه من المدن الزاهرة والعامرة . وقد رأوا فى الإسكندرية وفى منف وطيبة وفى غيرها من بلاد مصر عمارة وصناعة وريفاً خِصباً وظلاً وارفاً . وقد اجتمع لهم من الفىء والعطاء رزق حسن يَجُنبهم شظف العيش بل يعوِّدهم لينه وييسِّر لهم مُتَعه . ثم إنهم رأوا فى بنات الأصفر من الروم والشام وفى عذارى مصر وظباء العراق جمالاً غير الذى ألفوا فى بدوهم وحضرهم ، جمال الحياة الناعمة اللينة ، كما وجد بعضهم فى نبيذ هذه البلاد المفتوحة طعماً سائغاً وفعلاً رفيقاً . وإلى جانب هذا كله كانت تقوم آثار الفن بارعة رائعة فى معابد الروم ومقابرهم وما فيها من

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٦
(٢) سورة البقرة آية ٢٧٥
(٣) سورة النساء آية ١٦١
(٤) سورة البقرة آيتا ٢٧٨ ، ٢٧٩

تماثيل وفنون أبدع صنّاعها فى تصويرها أى إبداع ، وفى كنائس المسيحيين وأديارهم وما فيها من صور تكاد تنطق بما أراد مصوروها أن تنطق به . هذا إلى ما كانت مدرسة الإسكندرية تُذيعه فى الناس من مبادئ وآراء ، ومن علوم وفنون ، وما كان يذيعه الروم والفرس فى دمشق والمدائن من تعاليم وآداب أثمرتها حضارات نضجت على القرون ثم آن للعفاء أن يجرّ عليها ذيله .

ترى أى أثر أدّى إليه اجتماع هذه العوامل الكثيرة فى حياة العرب الاجتماعية لذلك العهد ؟ .

تقتضينا الإجابة على هذا السؤال أن نضم إلى هذه العوامل عاملاً وجّهها جميعاً ، هذا العامل هو عمر نفسه ؛ فقد كان لاجتهاده فى الفقه والسياسة والاقتصاد والاجتماع أثرٌ أعظم الأثر فى الجماعة الإسلامية كلها وفى العرب جميعاً ، سواء من أقام منهم فى شبه الجزيرة ومن استوطن البلاد المفتوحة . وسنفصِّل شيئاً من هذا الاجتهاد فى الفصل التالى . وهذا الاجتهاد هو الذى عصم الحياة الاجتماعية فى عهده من التدهور ، وهو الذى حفظ للروح الإسلامى سؤدده على نفوس المسلمين حيثما كانوا . وهذا فضل لعمر عظيم يضاف إلى سيرته العادلة فى الحكم ، وإلى اضطلاعه بأعبائه فى قوة وبراعة .

فقد أدرك بإلهامه أن النفس الإنسانية ، حين تندفع إلى السمو الروحى ، مُعَرَّضَةٌ دائماً لجواذب الأهواء تميل بها إلى المستوى الذى يلائم طباعها وسلائقها ، كطائرة ترتفع محلقة فى الجو ، وهى معرَّضة أبداً للانحدار ، بحكم جاذبية الأرض ، إذا ضعفت القوة التى رفعتها فى أجواز الأثير ، فإذا لم يَصرِف أمير المؤمنين عنايته لمقاومة أسباب الضعف فى نفسه أولاً ليكون الأُسوة لغيره ، ولمقاومة أسباب الضعف فى نفوس الناس جميعاً ، خيف أن تنحرف المبادئ التى أدّت إلى السمو والقوة عن وجهتها وأن تتغلب عليها السلائق والأهواء الدنيا ، وأن يعود الناس سيرتهم الأولى مصوَّرَةً فى ظاهر جديد يظن الناظر إليه أنه يتفق مع مبادئ الإسلام وتعاليمه . وقد رأيت كيف بلغ عمر من القسوة بنفسه ، كيما يحس إحساس أفقر المسلمين وأضعفهم ، حتى أشفق أصحابه فى حين من الأحيان على حياته . وقد جعلته قسوته بنفسه فى حلٍّ من أن يقسو بكل من يراه مخالفاً لموجب العدل والتقوى ، أو منحرفًا عن سبيل النزاهة والخُلق القويم . بذلك استطاع أن يحاسب عمّاله الحساب العسير ، وأن يعزل منهم من رأى فيه اعوجاجاً مع المحافظة على هيبة المحسنين منهم وتقوية سلطانهم ، وأن يجتهد فى بعض الحدود والأحكام

اجتهاداً لم يعرفه الناس فى عهد أبي بكر ولا فى حياة الرسول ، وأن يستن فى الاقتصاد والاجتماع سنناً صارمة رآها تكفل لمبادئ الدين القيّم أن تظل فى صفائها ونقائها .

أدّى مَثَلُ عمر وأدَّت سياسته فى الاقتصاد والاجتماع ، إلى بقاء ماركّب فى النفس العربية من خلال الإقدام والغزو سلباً قويًا ؛ فهو لم يسمح للعرب المحاربين باستغلال الأرض فى العراق والشام ومصر ، بل أبقاهم فى مَسَالِحهم جنود جهاد وفتح ، فكانت الإمبراطورية المترامية الأطراف نتيجة محتومة لهذه السياسة . وأدى اجتهاد عمر إلى يقظة النشاط العقلى عند العرب فى ميادين لم يكونوا يألفون الخوض فيها . فقد أغرى تدفق المال الناس بالإقبال على الثروة والحرص على جمعها وتثميرها ، فحبّذ بعضهم هذا الاتجاه ورآه خيراً لرخاء المسلمين ، وعابه بعضهم ورآه مخالفاً لمبادئ الدعوة الإسلامية ، مستندين إلى قوله تعالى:(كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآه آسْتَغْنَى إِنَّ إِلى رَبِّكَ آلرُّجْعَى)[1].

ورأى المسلمون فى البلاد المفتوحة آثاراً من الفن بعضها تماثيل تُشبه الأصنام التى كانت عند الكعبة فى الجاهلية فلم يحطموها ، بل لم ير سعد بن أبي وقاص بأساً بأن يتَّخذ إيوان كسرى بالمدائن مصلًّى ، وأن يترك ما به من تماثيل قائماً على أنه بعض الزخرف الذى ازدان به القصر وازدانت به أبهاؤه . وهو إنما أبقاها لأنه لم يكن أحد يعبدها . وكان معظم هذا النشاط متجهاً إلى ما لم ينزل فيه قرآن ولم تجر به سنة من رسول الله ، فكان اجتهاد الرأى فيه مما عُنِى العرب به . على أن هذه العناية لم تتعدَّ المنافع العاجلة ، فلم تخرج بالعرب عن طبيعتهم ، ولم تبلغ بهم إقامة مذاهب فى الفلسفة أو الاقتصاد أو الاجتماع قوامها المنطق الذى يتعمق الأشياء كما فعل اليونان ، ولا إلى إقامة مذاهب فى الأدب على اختلاف صوره ، يتطور معها الشعر إلى الملحمة ، والنثر إلى القصة الطويلة كما فعل الفرس .

ومن الشطط أن يطلب إنسان إلى أمة العرب لذلك العهد أن تنتقل فى فلسفة التوحيد إلى ما فصّله الغزالى والفارابي وابن رشد وغيرهم من بعدُ . وحَسبها أنها آمنت بالعقائد والقواعد التى جاء بها الرسول من عند الله . وأنها اتخذت هذه العقائد والقواعد أساساً لعباداتها ونُظُم حياتها ومعاملاتها . ثم حسبُها بعد ذلك فخاراً أن أقامت القواعد من الإمبراطورية ، فشاد أبناء هذه الإمبراطورية رويداً رويداً مبادئ الحضْارة التى وجّهت الإنسانية قروناً طويلة من بعد . فإذا ذكَرْت أن هذا الانتقال لم يكن بالأمر

---

(١) سورة العلق الآيات من ٦ – ٨

الهين وذكرت جهاد رسول الله وأصحابه فى سبيله ، وقدَّرت حال العرب فى ذلك الطور من حياة الإنسانية ، وجب عليك أن تنظر فى كثير من التسامح ما بقى بين العرب من عاداتهم القديمة التى لم يحرِّمها الإسلام ، وإلى ما اندفعوا إليه بحكم التطور الذى أقام الإمبراطورية ، بعد أن أفاء عليهم من الأموال والنعم ما لم يكن لهم من قبل به عهد .

والواقع أن العرب لم يكونوا فى ذلك طرازاً وحدهم ، ولم يخرجوا فيه على مألوف الجماعة الإنسانية فى كل العصور . فما أكثر ما فى التاريخ من شواهد على أن الثورات لا تغيِّر من ميول البشر وعاداتهم ، بقدر ما تغيِّر من مسارح تفكيرهم ونُظُم جماعتهم ! فهم ينتهون إلى التسليم برأى من الآراء أو بمبدأ من المبادئ وإلى الإيمان به ، ومع ذلك تراهم لا يلبثون أن يكيفوا ما تفرضه عليهم سليقتهم من ميول وأهواء ليسلكوها فى نطاق هذا المبدأ ، وفى نطاق النظام الذى يقوم على أساسه . ذلك بأن الكثرة الكبرى من الناس تتأثر بدوافع الغريزة ومغرياتها أضعاف ما تتأثر بالمُثُل العليا التى تُرْسَم لهم وتتراءى أمامها . وهذه الكثرة شديدة الرجاء دائماً فى التخلص من الجزاء الذى يترتب على اندفاعها مع أهواء الغرائز ودوافعها . وهى تلتمس هذا الرجاء فى الاستتار عن أعين الناس حيناً ، وفى شبهة القاضى يدرأ بها الحد حيناً آخر ، وفى مغفرة الله دائماً . أليس عفوه وغفرانه قد وسعا كل شىء ؟ أوَلاَ تجْزَى الحسنة عنده بعشر أمثالها ، ولا تُجْزَى السيئة إلا بمثلها ؟ وياَبؤس الإنسان إذا لم يكن له فى عفو الله مطمع ! وما أكثر ما يجد الإنسان فى خلق الله من متاع ! فمن استحلَّ منه ما أحل الله ، وحرَّم على نفسه ما حرم ،وعمِل صالحاً ، فله أجره عند ربه . ومن زلقت به القدم وأغرته النفس الأمَّارة بالسوء ثم تاب وأناب ، فإن الله يقبل التوبة من عباده .

ماذا بقى من عادات الجاهلية فى حياة العرب الاجتماعية بعد إسلامهم ؟ وماذا طرأ عليهم فى هذه الحياة حين انفسحت إمبراطوريتهم ، واستقر الألوف منهم خارج شبه الجزيرة ؟

كان العرب فى الجاهلية يتعصَّب كل منهم لقبيلته ، ويتعصبون جميعاً للجنس العربي . وطبيعة الدعوة الإسلامية تنكر هذه العصبية الجاهلية ؛ فهى تسوِّى بين الناس جميعاً ، وإنما يتفاضلون بأعمالهم وتقواهم ، لا فرق بين عربي وغير عربي . والقرآن صريح فى ذلك إذ يقول تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1] ، ويقول : ﴿ إِنَّمَا

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣

الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (١) . والإسلام قد نزل للناس كافة ، أحمرهم وأسودهم ، عربيهم وأعجمهم . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « أيها الناس إن الله تعالى أذب عنكم نخوةَ الجاهليَّة وفخرها بالآباء . كلّكم لآدم وآدمُ من تراب . ليس لعربىٍّ فضلٌ على عجمىٍّ إلا بالتقوى » . مع ذلك بقيت العصبية القبلية متأصلة فى نفوس أكثر العـرب ، وبقى التعصب للجنس العربي قوياً فيهم جميعاً ؛ بل لقد تضاعف هذا التعصب للجنس بانتشار العرب فى ملك فارس والروم وحكمهم أهله ، وأيقن العرب أن ما ألقاه القدر عليهم من رسالة وقْفٌ عليهم لا يشاركهم فيه أحد .

والأمثلة على بقاء التعصب للقبيلة كثيرة فى التاريخ . وقد حدث من ذلك فى حياة النبي أن تفاخر الأوس والخزرج وذكروا يوم بُعَاث وقال أحدهم : « إن شئتم والله لنعيدنها جَذَعَة » . ولولا أن تدخل النبي بينهم وأعاد إليهم إخاءهم لكان بين الفريقين شرٌّ . وقد سكن التعصب للقبيلة فى العهد الأول من حكم الخلفاء ؛ لأن اشتغال المسلمين بالفتح أمات ما بينهم من منازعات . فلما اختلف علىٌّ ومعاوية عادت العصبية للقبيلة سيرتها الأولى ، وعاد ما كان بين بنى هاشم وبنى أمية إلى مثل ما كان فى الجاهلية . ولا تزال هذه العصبية للقبيلة قوية فى العرب أهل البادية إلى وقتنا الحاضر ، سواء فى ذلك من أقام منهم فى شبه الجزيرة ومن أقام خارجها .

أما تعصب العرب لجنسهم فقد زاده الفتح أضعافاً مضاعفة . كيف لا وهم يرون الإمبراطوريتين العظيمتين ، فارس والروم ، تنهار أركانهما أمام قوتهم ويدول سلطانهما لدولتهم . ولعلهم لم يجدوا بهذا التعصب بأساً والله تعالى يقول فيهم : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس تأْمُرُون بِالْمَعْرُوف وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بالله) (٢) ، ويقول : (وَكَذَلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً) (٣) . فذكروا هذه الآيات ونسوا تثريب الله عليهم ولومه لهم فى كثير غيرها ، كما نسوا مبادئ الإخاء والمساواة التى دعا الإسلام إليها وجعلها أساس الإيمان .

وليس لنا أن نؤاخذ العرب بتعصبهم لجنسهم ؛ فالتعصب للجنس كان ولا يزال سنَّة فى الأمم تأخذ بها وتعمل على تقويتها . ألا يزعم الجنس الأبيض اليوم أن القدر اختاره ليرقى بالأجناس الملونة ، على تعبيرهم ، فى مدارج الحضارة ! أو لا يزعم الجنس الآرىّ أنه أفضل من الجنس السامى ومن سائر الأجناس ، وأنه أحدّها ذكاء ، وأدقّها

(١) سورة الحجرات آية ١٠ (٢) سورة آل عمران آية ١١٠ (٣) سورة البقرة آية ١٤٣

منطقاً ، وأكثرها فى العلم والفن ابتكاراً وإنتاجاً ! والجنس السكسونى والجنس الألمانى يدّعى كل منهما لنفسه مثل هذه الدعوى التى يتشدّق بها كل من بسم له الحظ ، فجعل له سلطان البطش بالشعوب الأخرى فى طور من أطوار التاريخ الإنسانى . وهؤلاء جميعاً يتشدّقون بهذه الدعوى وهم يعرفون ما يثبته التاريخ من أن السلطان دولٌ ، فهو يتنقّل بين الأجناس والألوان والأمم فى أطوار تتصل بالحياة المعنوية حيناً ، وبالحياة الاقتصادية حيناً آخر ، ولا علاقة له البتة بجنس بذاته ولا بلون بذاته . فإذا كان العرب قد بالغوا فى التعصب لجنسهم ، يوم كانوا الغالبين وكانت مقاليد الحضارة فى أيديهم ، فلهم من العذر أنهم جروا على السنّة التى تجرى عليها الأجناس كلها والشعوب جميعاً ؛ فتعصبوا لعربيتهم ، وإن خالف هذا التعصب مبادئ الإسلام ، ودعوته الصريحة القوية إلى الإخاء والمساواة .

وقد أدى بهم هذا التعصب إلى التشبث بعادات جاهلية لا تقرّها تعاليم الإسلام . من ذلك حرصهم على الثأر وتشبثهم بعاداتهم القديمة فيه . فالتعاليم الإسلامية لا تبيح من الثأر ما كان مباحاً فى الجاهلية ، وما كان يُثير بين القبائل قتالاً يتصل أعواماً . فالله تعالى يقول : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) (١) . ويقول : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى) (٢) . والقصاص حدٌّ من الحدود يقيمه ولىّ الأمر ، ولا يتولاه ولىّ الدم نفسه . هذا ، ثم إن القرآن يأمر بالعفو وينصح به فى كثير من الآيات . مع ذلك تشبث العرب بالثأر ، فبقى عادة متأصلة فيهم متنقلة على الأجيال بينهم . وذلك شأن البدو منهم إلى يومنا هذا . بل إن من الحضر الذين يمتّون إلى البدو بصلة القربى من لا تزال فكرة الثأر متصلة فى نفوسهم بكرامتهم وبحياتهم ؛ فهم لا ينزلون عنها ، ولا يجدون فى القانون وقصاصه ما يرضى عاطفتهم ويعدل بهم عن جاهليتهم .

سكنت العصبية للقبيلة ، وسكنت الثارات فى عهد عمر ؛ لأن المسلمين شُغلوا بالجهاد والفتح . على أن ما أفاءه الفتح عليهم من مغانم ، وما بدّله من حياة مَنْ سكن الحضر فى العراق والشام ومصر من أهل البادية ، أثار فى كثير من النفوس نزعتها الأولى للمتاع المادىّ بالحياة .

فقد كان للعرب فى جاهليتهم غرام بالنبيذ والخمر ، وولع بالنساء والغناء ، وافتتان

---

(١) سورة النحل آية ١٢٦ (٢) سورة البقرة آية ١٧٨

فى إشباع الشهوات بالقدر الذى ييسّره لهم حظُّهم من الرخاء أو من شَظَف العيش. فلما كان الفتح وعظُم حظهم من الرخاء فصارت أسباب المتاع فى متناول أيديهم ، هرع الكثيرون منهم إلى إرضاء ما أحبَّت نفوسهم من قبلُ . وما أسرع ما هيأ لهم المنطق وسيلة الاقتناع بأنهم لا يخالفون فى ذلك ما أمر الله به وما نهى عنه وما أقام حدوده ! بذلك عاد منهم إلى الشراب من عاد ، وهو يزعم أن لا إثم عليه فيما يتناوله منه ؛ فلم يفرض الله حدًّا لشارب ، ولم ينزل رسول الله ولم ينزل أبو بكر بشارب عقاباً . أما النساء فقد أرضى ولعَ الكثيرين بهن ما ملكت أيمانهم منهن ؛ فقد كانت سبايا الفرس والروم ، ومنهن فاتنات الجمال والدلال ، يُقْسَمْنَ بين الجند كما تُقسم أموال الفىء ، ويُعرَضْن فى الأسواق رقيقاً يبتاع منهم من شاء أن يرضى بهن هواه .

وإن كتب الأدب وكتب التاريخ لتقصُّ من ألوان هذا المتاع بالخمر والميسر والنساء الشىء الكثير سقنا من قبل حديث أولئك النفر من المسلمين الذين شربوا الخمر بالشام فسألهم أبو عبيدة ، فلم يُنكروا لكنهم تأوّلوا وقالوا : خيِّرنا فاخترنا ؛ قال : هل أنتم منتهون ، ولم يعزم علينا » . وقصصنا كذلك حديث عبد الرحمن بن عمر حين شرب الخمر بمصر ، وذهب إلى عمرو بن العاص ليُقيم عليه الحَدَّ . وذكرنا نبأ أولئك الذين رآهم عمر ليلة يشربون بظاهر المدينة ، فلما سأل أحدهم الغداةَ عما كانوا يفعلون أجابه : ألم ينهك ربك عن التجسُّس ! وهذه أمثال سقناها فى مناسباتها ، وهى مع ذلك تدّل على أن الشراب كان فاشياً فى بعض طبقات المسلمين لذلك العهد ، مع ما كان من شدة عمر فى تحريمه وإقامة الحدّ عليه .

وما يروى عن حديث النساء أكثر استفاضة ، وبعضه ينسب إلى أشخاص لهم مكانتهم . وقد رأينا كيف كان اصطفاء ذوات الجمال من السبايا أمراً جارياً مجرى العادة ، لا يُنكره أحد ، ولا يلام من أجله أحد . وقد اصطفى علىّ بن أبي طالب وخالد بن الوليد وغيرهما من كبار الصحابة سبيَّات من الفرس والروم أنجب بعضهن ولم ينجب بعضهن الآخر . ويروى صاحب الأغاني أن عبد الرحمن بن أبي بكر استهيم بليلى بنت الجودى الغسّاني ، وكان قد رآها ليلة فى بيت المقدس فى جَوَارٍ ونساء يتهادين ، فإذا عثرت إحداهن قالت : يا ابنة الجودىّ ، وإذا حلفت إحداهن حلفت بابنة الجودى . وكانت ليلى تقيم بدمشق ؛ فلما فتحها المسلمون سبوها وغنّموها لعبد الرحمن ، فسار بها إلى المدينة وأقام معها مفتوناً بها فتنة جنون . وتحدث الناس بغرامه وما يصنع ، حتى

كلّمته شقيقته عائشة أم المؤمنين وذكرت له حديث الناس ، فلم يزد على أن قال : « يا أخية دعيني ، فوالله لكأني أرشف من ثناياها حب الرمان ! »

وبادلته ليلى أول الأمر حبًّا بحب وغراماً بغرام ، وسرَّها أنها كانت في بيته الملكة المتفردة بالأمر على كل ما فيه ومن فيه . لكن مرّ الأيام دسّ إلى قلبها حنيناً لأهلها ، ولما كانت تستمتع به من مكان الملك بينهم . ولا عجب ، فأين حياتها بالمدينة من حياتها في قصر الإمارة بدمشق بين الغياض والرياض من جناته الفيحاء ! وأين عيشها مع عبد الرحمن مما كان لها في قصر أبيها من أسباب الخفض والنِّعمة ! كان لها في هذا القصر بساط يُمَدّ لها إذا ذهبت إلى حاجتها ، وكان يُرْمَى بين يديها برمانتين من ذهب تتلهى بهما في طريقها ، وكان لها بدمشق جوار يخطئهن العَدّ ، وهي بالمدينة جارية وإن نالت عند سيدها من الحظوة ما نالت . وزاد بها الحنين ، فكان عبد الرحمن إذا خرج من عندها ثم رجع إليها رأى في عينيها البكاء ، فإذا سألها : ما يبكيك ؟ لم تُحِرْ جواباً . وقال لها يوماً : اختاري خصالا أيها شئت فهي لك : إن شئت أعتقتك وتزوّجتك ، وإن شئت رُدِدْتِ على قومك ، وإن أحببت رددتك على المسلمين . وأبت كل ما عرضه ، فألحّ عليها يسألها عن سبب بكائها فقالت : « أبكي الملك من يوم البؤس ! » . وحزّت هذه الكلمة في نفس عبد الرحمن ، ورأى فيها من التنكر له وإنكار جميله ما غيرَّ قلبه على ليلى ، فأعرض عنها وزادها إعراضه ألماً ، فمرضت وشحب لونها وانطفأ نورها وذهب جمالها ، فملّها عبد الرحمن ، وهانت عليه وأساء معاملتها . وبلغ من بؤس الأميرة الأسيرة أن تحرّك قلب عائشة أمّ المؤمنين رفقاً بها وشفقة عليها ، فقالت لأخيها : « يا عبد الرحمن ، لقد أحببت ليلى فأفرطت ، وأبغضتها فأفرطت ، فإما أن تُنصفها ، وإما أن تجهـزها إلى أهلها ! » . وجهزها عبد الرحمن فرجعت إلى أهلها كاسفة البال كسيرة الطرف ، وقضت بينهم بقية حياة حُرِمت خير أنعم الحياة .

ليست قصة عبد الرحمن بن أبي بكر فريدة في نوعها . وإذا كان لهذا النوع من القصص المنثورة في كتب الأدب والتاريخ دلالة ، فهي أن العرب طُبِعوا على حبهم المرأة وغزلهم بالنساء بعد الإسلام ، وأنهم وجدوا في سبايا الفتح ما زادهم في التعلق بالنساء افتتاناً . كانت قصة عبد الرحمن وأشباهها مما يقع بالمدينة ، ما بالك بما كان يقع بالكوفة والبصرة وبدمشق وحمص وبالفسطاط والإسكندرية ! وأنت تذكر قصة أمّ جميل إحدى نساء بني هِلال ، وأنها كانت تغشَى الأمراء والأشراف . فغَشِيت المُغيرة بن شُعبة وهو على

ولاية البصرة ، فاتّهمه فيها قوم عند عمر فعزله عن ولايته . والطبرى يسوق قصة أم جميل هذه وأنها كانت تغشى الأمراء والأشراف . ويقول : « وكان بعض النساء يفعلن ذلك فى زمانها » ، أى فى عهد عمر .

ربما فسّرنا بعض الذى كان من إقبال كثيرين على الشراب وعلى النساء وعلى غير هذين من مُتَعٍ كان العرب يحبّونها قبل إسلامهم ، أنهم كانوا فى حرب دائمة وقتال متصل ، فإذا رجعوا من الميادين كانوا على أهبة دائمة للعود إليها . فقد كانت البصرة والكوفة وبلاد كثيرة غيرها فى العراق والشام مَسالح تضمّ الجند العائد من القتال والمتأهبين له . ونحن نشهد اليوم والتاريخ يحدِّثنا فى أنباء ما سَلف من العصور أن الحرب تثير فى كثير من النفوس شهواتها وتدفعها لإمتاع هذه الشهوات وإشباعها . والسر فى ذلك أن الجند لا يجدون إذا فرغوا من القتال ، ما يملئون به فراغهم إلا أن يذكروا فعِالهم يفاخرون بها ، وفعال زملائهم الذين خرّوا صرْعَى فى حومة الوغى يتحدَّثون عنها . ولم تكن المعارك فى ذلك العهد تستنفد من الوقت ما تستنفده معارك هذا العصر ، وقد رأينا معركة القادسية لا تستغرق أكثر من ثلاثة أيام ، ورأينا معركة نَهاوند تنتهى فى مثل هذا الوقت أو فى أقل منه . ولم يكن القتال ليطول إلا أن يحاصر المسلمون مدينة منيعة كدمشق أو قيسارية أو بابليون أو الإسكندرية . وكان الجند كلما انتصروا عادوا بالغنائم والأسلاب ، ومن بينها السبايا من نساء البلد المفتوح وبناته . وكثيراً ما يحدث فى الحروب أن يستباح البلد المفتوح أياماً عقب الفتح يُرْخى للجند فيها العنان ، يأكلون ويشربون ، ويستمتعون بكل ما طاب لهم أن يستمتعوا به . وكان الذين يعودون من الفتح بالسبايا فى حلّ من الاستمتاع بما ملكت أيمانهم منهن . فأما من لم يكن له منهن حظ يرضيه ، ثم هوت نفسه إلى المتاع ، فقد كان يلتمس بعد أوبته وسيلة متاعه . ذلك شأن الجند فى كل عصر ، وهو شأنهم اليوم ، وهو يفسّر لنا بعض ما ترويه كتب الأدب والتاريخ لما حدث من مثله فى عهد الفتح الإسلامى .

على أن هذا التفسير لا يكشف لنا عن السر فى حرص العرب على هذا المتاع ، بعد أن انقضى عهد الفتح والغزو ، فقد ظل كثيرون يتوفّرون على الشراب ويولعون بالنساء فى عهد الأمويين ، وفى عهد العباسيين ، وفى عهود الانحلال التى تلت هذين العهدين . ولم يكن الرأى العام شديد الإنكار على أصحاب هذا المتاع ، بل كان الناس يحسنون الاستماع لما يروى عنهم وما يوصف به متاعهم . ولا أحسبنى أعرف شعراً بلغ من الافتنان فى الخمريات وفى الغزل ما بلغه الشعر العربي . والشعر الإسلامى يستمد الوحى فى هذين البابين من

الشعر الجاهلى أكثر مما يستمدّه منه فى غيرهما . فإذا كان فى طبيعة القتال أن يثير الشهوات وأن يدعو إلى الإمعان فى إرضائها ، فهو إنما يثير الشهوات الأصيلة فى النفس ولا يخلق غيرها . لذا لم يزد الفتح العربى على أن أثار فى بعض النفوس شهوات جاهلية وقف منها عمر موقفاً حازماً نتحدث عنه بعد حين .

لكن عمر لم يقف مثل هذا الموقف مما أحلّه الإسلام من ألوان المتاع السائغ عند بنى جنسه . من ذلك أن العرب كانوا من أكثر الشعوب حبًّا للغناء وولعاً بسماعه ، بل كان الغناء من حاجات حياتهم وضرورات عيشهم ، فحُداؤهم الإبل كان ينسيهم وينسى إبلهم وعثاء السفر ويهون عليهم مشقته . فإذا نزلوا منزلاً يستريحون فيه بعد طول السُّرى كان الغناء بعض سلوتهم ، وبخاصة إذا كان بينهم مطرب رخيم الصوت حسن الإيقاع تحيي أنغامه ما فى نفوسهم من حنين للأهل ، أو حرص على الثأر ، أو تطلع للمجد . وقد شاع ذلك فى باديتهم وفى حضرهم ، فكانت مجالس الغناء تعقد بمكة والمدينة وغيرهما من بلاد شبه الجزيرة ، كما كانت تعقد فى أرجاء البادية من أقصى جنوبها إلى أقصى الشمال . وكان عمر نفسه ، على ما عُرِف من شدته وغلظته ، يطرب للغناء ويردده أحياناً . خرج رهط من الشُّبان فى ركب فيه عمر وعثمان وابن عباس ، وفيه رباح الفهرى الذى كان يُجيد الحُداء والغناء . فلما أمسوا سأل الشبان رباحاً أن يحدوا لهم فأبِى وقال : مع عمر ؟ قالوا : أحْدُ ، فإن نهاك فانْتهِ . فحدا فلم يعترض عمر ، بل طرب لسماعه . فلما كانت ساعة السحر قال له : كَفّ ! هذه ساعة ذكر وسأل الشبان رباحاً فى الليلة الثانية أن ينصب لهم نَصْب العرب ، وقالوا له حين أبى خوفاً من عمر : انصب فإن نهاك فانْتَه . وسمع له عمر حتى ساعة السحر ثم قال له : كف ! فإن هذه ساعة ذكر . وسأل الشبان رباحاً فى الليلة الثالثة أن يغنّيهم غناء القِيان ، فلم يكد يبدأ حتى صاح به عمر : كفّ فإن هذا ينفّر القلوب !

وخرج عمر مرة للحج ، فاقترح من معه على خوَّات بن جبير أن يغنّيهم من شعر ضِرَار . قال عمر : بل دعوا أبا عبد الله فليغنّ من بُنيَّات فؤاده . وغنّى خوَّات وطرب عمر ، حتى إذا كان السحر قال له : ارفع لسانَك يا خوَّات فقد أسحرنا .

وتغنّى عمر وهو فى ركب :

وما حملتْ من ناقة فوق رحلها   أَبَرَّ وأَوفى ذِمَّـةً مـن محمـد

فاجتمع الركب يسمعون إليه . فلما رآهم اجتمعوا قرأ القرآن فتفرّقوا . وتكرر ذلك

منهم ومنه ، فصاح بهم : يا بنى اللقطاء ! إذا أخذت فى مزامير الشيطان اجتمعتم ، وإذا أخذت فى كتاب الله تفرقتم !

ونهيه رباحاً عن غناء القِيان بعد استماعه له وهو يحدو وهو ينصب ، وغضبه من الذين تفرقوا حين قرأ القــرآن بعد اجتماعهم لسماعه يتغنّى بالشعر ، يشهدان بأنه كان يحب السماع ويحب الغناء . ولقد كان يحب الغناء يُحسن صاحبه التعبير عن المعاني التى ترضاها النفس الكريمة ، ولا ينزل إلى حيث يستهوى فى النفس نوازع ضعفها ونزغ شهواتها . وكان على حبه الغناء والاستماع له ، يؤثر عليه سماع القرآن وتلاوته . ولا عجب وقد كان عمر إذا سمع القرآن وهو مغضب سكت عنه غضبه ، وكثيراً ما كان يستدرّ مآقيه دموعاً تعبّر عن عمق إيمانه وصدق إسلامه . ولا عجب وقد كان ضعف النفس لأمرها بالسوء شر ما يعاب به الرجل عند عمر .

وإنما نهى عمر عما يحرّك فى النفس نوازع الضعف ونزغ الشهوة لما رأى من سوء أثره فى حياة الجماعة . وحياة الجماعة وقوة هذه الحياة ونشاطها وتوثبها إلى الأغراض السامية واجبات يضطلع بها الحاكم ، كاضطلاعه بحفظ النظام فى الدولة والمحافظة على سلامتها ، لأن هذه القوة وهذا النشاط وهذا التوثب كلها أدوات للنظام والسلامة . وليست الأقوال دون الأفعال أثراً فى هذه الحياة . كان المديح وكان الهجاء من أغراض الشعر العربي فى الجاهلية ثم ظلاّ من أغراضه فى الإسلام ، ولايزالان من أغراضه إلى اليوم . وكان بعض الشعراء يغلون فى مدائحهم وأهاجيهم غلوًّا يحرّك الحفائظ ويثير المنازعات ، فكان عمر يؤاخذ هؤلاء الشعراء ، ويأخذهم بالشدة التى تردعهم وتردهم عن الاسترسال فى غيهم .

والرواية عنه فى ذلك مستفيضة . روى أنه حبس الْحُطَيْئة لأنه كان يقول الهُجر ويمدح الناس ويذمهم بما ليس فيهم . فلما أعطاه الحطيئة موثقاً ألا يعود إلى ما حُبس فيه أطلقه . فلما ولّى ناداه فرجع فقال له : كأني بك يا حطيئة عند فتى من قريش قد بسط لك نمرقة [1] وكسر لك أخرى ثم قال : غننا يا حطيئة ، فطفقت تغنيه بأعراض الناس ! فأقسم الحطيئة أن لن يفعل . قال زيد بن أسلم : ثم رأيت الحطيئة يوماً عند عبيد الله ابن عمر قد بسط له نُمرقة وكسر أخرى ، ثم قال تغنّينا يا حطيئة ، وهو يغنّيه ، فقلت : يا حطيئة ! أمَا تذكر قول عمر ! ففزع وقال : رحم الله ذلك المرء ! أما لو كان حيًّا مافعلنا هذا . وإنما حبس عمر الحطيئة لهجائه الزبرِقان بن بَدْرِ فى أبياته التى يقول فيها :

---

(١) النمرقة : الوسادة .

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِها واقعُدْ فإنك أَنت الطاعمُ الكاسى

وكان عمر مشغوفاً بالشعر ، يرويه ويتمثَّل به ويحث على روايته . فلما شكا الزبرقان إليه الحطيئة أراد أن يدرأ التعزير بالشبهة ، فقال حين سمع هذا البيت : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة . ثم إنه سأل حسان بن ثابت وهو الخبير فى الشعر ، فلما شهد بإفحاش هذا البيت فى الهجاء ، حبس الحطيئة ثم أنذره ألا يعود إلى مثل ما فعل . ولم يعد الحطيئة إلى الهجاء إلا فى خلافة عثمان .

وحبس عمر الشاعر الذى هجا بنى العجلان بأبياته التى يقول فيها :

أولئـك أولاد الهجين وأسرةُ الـ لئيم ورهط العـاجز المتذلل

حبسه وضربه ، وأنذره إن عاد لمثلها ضاعف عقوبته .

وإنما عاقب عمر الشعراء الهجائين فحبسهم وضربهم وعزّرهم وأنذرهم ، مع شغفه بالشعر وروايته ، لما يعلمه من أن القول أعمق فى حياة الجماعة الإنسانية أثراً من كل ما سواه . فالناس ، من طفولتهم إلى ختام حياتهم ، يتأثرون به ويندفعون إلى أعمالهم بما يُلقنونه منه : عقائدنا وعاداتنا وعلمنا وتفكيرنا وعواطفنا وميولنا تتكيف كلها بما نسمعه منذ طفولتنا من أهلنا وأساتذتنا وأصحابنا ، وما نقرؤه فى كتب من سبقنا . والمديح والهجاء كانا سائغين فى الجاهلية ، بل كانا من المقومات الأساسية للحياة الاجتماعية فيها ، ثم كانا صيحة الحرب والدعاية حين تندفع قبيلة لتثأر من قبيلة . وإذا كان القتال من مألوف الحياة إذ ذاك ، فقد كان الشعراء يُشيدون بمحاسن إحدى القبيلتين وينشرون مثالب الأخرى . أما وقد أصبح العرب أمة واحدة تقف فى وجه عدوها صفًّا واحداً ، فقد وجب أن تزول هذه العادة الجاهلية من حياة الأمة الاجتماعية ، وقد وجب على أمير المؤمنين أن يعمل لذلك جهده . وزوالها أوجبُ فى عهد النضال والفتح ، لما يقتضيه من تآلف القلوب وتضافر القوى واتجاه الأمة بأسرها فى وحدة لا انفصام لها لمواجهة العدو والقضاء على كل مطامعه .

وقد كانت سياسة عمر فى القضاء على هذه النعرة القَبَلِيَّة موفقة ، بل كانت كلها السداد والحكمة وبعد النظر . أقرّر هذا وأنا أشد الناس إيماناً بحرية الرأى وحرية التعبير عنه بالقول وبالكتابة ، وبكل ما عرفت الإنسانية وما ستعرف من وسائل التعبير . ذلك بأن الرأى شىء ، والهجاء والقذف شىءآخر . الرأى فكرة أو مجموعة من الأفكار تصدر عن المنطق أو عن الوجدان ، وغاية صاحبه منه أن يكون الناس أقل شقاء أو أسعد حالا مما هم فيه . قد يخطئ صاحب الرأى وقد يصيب . وأنت فى حِلٍّ من أن تحارب الرأى إذا إعتقدته

خاطئاً . لكنك لا تملك أن تحارب صاحب الرأى إلا أن تُقيم الدليل على سوْنيّته فى إبدائه ، وعلى أنه لم يقصد به إلى خير عام ومصلحة يشترك فيها الناس جميعاً . فإذا استطعت إقامة هذا الدليل لم يَسُغْ لك مع ذلك أن تتناول من حياة صاحب الرأى الخاصة ما لا يتصل بالرأى الذى أبداه ، أو بالعمل الذى يريد أن يرتّبه على هذا الرأى ، أو بما أقمت عليه الدليل من سوء قصده . فى هذه الحدود وحدها أنت فى حِلٍّ من أن تحاربه وأن تبلغ فى حربه ما شئت من شدة وعنف . أما أن تتعرض إلى ما وراء ذلك من حياته فذلك هو القذف ، وهو الهجاء والإقذاع فيه ، وهو ما لا يجوز لقانون أو لحاكم أن يُبيحه ، بل يجب أن يعاقب مرتكبه عقاباً رادعاً فى بدنه وفى ماله ، وأن يبلغ هذا العقاب من الشدة بحيث يصون لأصحاب الرأى وللعاملين للخير العام حريتهم فى رأيهم وفى عملهم ، بقدر ما يصدّهم النقد النزيه عن تجاوز الحق فى الرأى والخيرِ العام فى العمل .

أدت سياسة ابن الخطاب فى محاربة الهِجاء والهجائين إلى استنامة الحفائظ وسكون كل ما يثيرها . ولا أدلّ على ذلك مما تلوته من قول الحطيئة حين تغنَّى بعد عمر بأهاجيه : « رحم الله ذلك المرء ! أما لو كان حيًّا ما فعلنا هذا » . لكن الهجاء لم يلبث أن عاد بعد عمر ، وأصبح من مألوف الحياة الاجتماعية فى الجماعة الإسلامية . على أنه لم يعد كما كان أداة دعاية للقبائل فى منازعاتها بقدر ما أصبح أداة تكسب وارتزاق ، أو أداة إرضاء للأهواء وإشباع للشهوات . وكذلك كان الشأن فى غير الهجاء من مألوف الحياة الاجتماعية قبل الإسلام . ولا عجب فقد بقيت فى نفوس أكثر العرب الذين أسلموا نزعات جاهلية لم يستطيعوا التغلب عليها ، بل لعلهم لم يحاولوا هذا التغلب .

وقد عبّر الأستاذ أحمد أمين خير تعبير عن هذا المعنى فى كتابه « فجر الإسلام » بقوله :

– الحق أن النزاع بين النفسية الإسلامية والنزعات الإسلامية ، والنفسية الجاهلية والنزعات الجاهلية ، كان شديداً وكان عهده طويلا ، وأن الإسلام لم يصبغ العرب صبغةً واحدة على السواء . بل إن خير من تأثر به هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . أولئك دخل الدين إلى أعماق نفوسهم ، وأخلصوا له وأنفذوا أوامره . فأما من أسلموا يوم الفتح أو بعده ، وظلوا على كفرهم وعنادهم حتى رأوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينتصرون فلم يسعهم إلا الإسلام ، فهؤلاء كان دين كثير منهم رقيقاً . (لاَ يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولئكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ

وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى) [١] . وبحق قسم المؤرخون الصحابة إلى طبقات حسب مراتبهم ، أوصلها بعضهم إلى اثنتى عشرة طبقة آخرها من أسلم يوم الفتح .

كان عمر من خير المسلمين إدراكاً لأصول الدين وقواعده ، ومن أحسنهم تقديراً لما يؤدى إلى إقرار هذه الأصول واستقرار هذه القواعد . لذلك حرص على أن ينفى عن الجمعية الإسلامية ما لا يقره الإسلام مما ألِف العرب فى جاهليتهم ، وأن يصبغها بصبغة الدين الجديد فى مظاهر حياتها جميعاً . والإسلام إمبراطورى فى جوهره ، وإمبراطوريته روحية أولا وقبل كل شىء . وهو لذلك يؤلِّف بين القلوب بروابط الإخاء والمساواة ، « فلا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . لا مفر للأمين على مبادئ هذا الدين إذاً من أن يذود عن مبادئه كل ما يخالف أغراضه أو يعطل تحقيقها .

وقد كان عمر حازماً فى ذلك كل الحزم ، صارماً فيه كل الصرامة ، لا يعرف ترددا ولا هوادة . كان يقيم حدود الله ، ويضع من الحدود ، بعد مشورة أولى الرأى ، ما يتفق وأغراض الإسلام . وقد رأيت ما فعله بمن شربوا الخمر فى الشام وفى غير الشام . رُوى أنه استشار فى الخمر يشربها الرجل ، فقال علىّ بن أبى طالب : « أرى أن تضربه ثمانين حدّ القذف ، فإنه إذا شربها سكر ، وإذا سكر هَذَى ، وإن هذى ، افترى » . فجلد عمر فى الخمر ثمانين ، واعتُبِر عملُه هذا حدًّا لشارب الخمر بإجماع المسلمين فى عهده ، ومن بعده [٢] . وسنرى عند الكلام فى الفصل التالى عن (اجتهاد عمر) ، ما كان من شدة حرصه على أن تستقر الحياة الإسلامية على أساس صحيح من المبادئ التى نزل بها الوحى ، والتى قررتها سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

أنت ترى ، من كل ما سقناه فى هذا الفصل ، أن الحياة الاجتماعية تطورت فى عهد عمر متأثرة بعوامل كثيرة متباينة ، لم يكن الكثير منها قائماً فى عهد النبى ، ولم يكن قد أتيح لبعضها أن يظهر أثره فى عهد أبى بكر . فمن تقاليد الجاهلية ما اندثر ، منذ أعلن العرب إسلامهم قُبيل وفاة رسول الله ، ومن هذه التقاليد ما اختفى بحكم الأحوال ، ثم

(١) آية ١٠ سورة الحديد .

(٢) فى بعض الروايات أن رسول الله حد شارب الخمر . ذكر المرحوم محمد الخضرى فى كتابه (تاريخ التشريع الإسلامى) ماورد فى القرآن من حدود : هى القصاص وحد الزنا وحد القذف وحد السرقة وحد قاطع الطريق ثم قال « وليس فى القرآن من الأجزية غير ماذكرناه . وقد بينت السنة حداً سادساً هو حد شارب الخمر ، فقد حده رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

جعل يبرز بين حين وحين بروزاً يدل على بقاء جذوره حية متأصلة ، متأهبة لتنمو وتتفرع من جديد . هذا إلى ما أنشأه الإسلام فى نفوس من أخذوا به من عقائد وتقاليد جديدة لم يكن لهم عهد بها من قبل ، وإلى ما لقيه المسلمون فى البلاد التى فتحوها من حضارة لم تكن مظاهرها مألوفة لهم ، فلما خالطوا أهلها واتصلوا بهم أصبحت سائغة عندهم محببة إليهم .

ولم يكن العامل الاقتصادى أقل أثراً من سائر العوامل فى هذا التطور ، فقد أفاء الفتح على كثيرين رخاء جعل المتاع بلين الحياة فى متناول أيديهم ، فأقبلوا عليه ينهلون منه . وكان الذين ذهبوا إلى العراق والشام ومصر أشد على المتاع إقبالاً ، لأن الحضر والخِصْب ييسِّران من ألوان المتاع ما لا تيسره البادية أما الذين أقاموا فى شبه الجزيرة فوجدوا فى العطاء الذى فرضه عمر لهم ما جعلهم يفتنّون ، فيما عرفوا من ألوان المتاع فى الجاهليه افتناناً رأيت صوَراً منه فيما قصصنا من قبل .

وقد أدى هذا التطور إلى نشاط فى الحياة العقلية ، اقتصر مداه عند العرب فى ذلك العهد على اجتهاد الرأى فيما لم ينزل به وحى ، ولم تَجْرِ به سُنّة من رسول الله . ولعلك تذكر قول أبي بكر فى مرض موته : « وَدِدتُ لو أننى سألت رسول الله عن ميراث ابنة الأخ والعمة ، فإن فى نفسى منهما شيئاً » وقد اطّرد اجتهاد الرأى فى عهد عمر وفى العهود التى تلته ، فكان الفقهُ الإسلامى ثمرته .

ثم أدى هذا التطور كذلك إلى اتجاه جديد فى حياة الأمم التى فتحها المسلمون ، وكان لهذا الاتجاه أثر عميق فى حياة العرب أنفسهم . وقد بدا هذا الاتجاه الجديد فى العراق والشام وفارس بنوع خاص ، وإن اختلف فى هذه الأمم باختلاف الأجناس التى تتكون منها . ذلك أن العراق والشام كان بهما من قبائل العرب من أقبلوا على الإسلام وتأثروا بتعاليمه ، ومن احتفظوا بدينهم وتأثروا مع ذلك بما فرضه الفتح الإسلامى من نُظِم فى السياسة والاقتصاد . أما فارس فاختلف اتجاهها عن العراق والشام . وسنرى أثر هذا الاختلاف عند الكلام عن مقتل عمر .

وقد تحدّثت من قبلُ عن الأثر الذى تركه الفتح الإسلامى أول عهده فى مصر . وإنما اختلف هذا الأثر عن مثله فى العراق والشام وفارس ، لأن سياسة ابن العاص فى مصر لم تكن كسياسة خالد بن الوليد فى العراق لعهد أبي بكر ، ولا كسياسة الولاة الذين قاموا بالأمر فى الشام بعد فتحه ، ولم تكن مصر كفارس فى وضعها السياسى إذ كانت فارس مستقلة ومصر ولاية رومانية ، لكنها كانت تشبه فارس من حيث اختلاف أهلها عن العرب

فى الجنس واللغة والدين . مع ذلك لم تكن سياسة ابن العاص ضعيفة الأثر فى تحويل المصريين ليكونوا أمة إسلامية لغتها العربية ، وليكونوا من بعد ذلك قلب العالم الإسلامى ومركز الحضارة فيه .

كان لعمر أثر كبير فى توجيه ماتم من تطور فى الحياة الاجتماعية لبلاد العرب . ولا أخالنى أغلو إذا قلت إن فضله فى هذه الناحية لا يقل عن فضله فى الناحية السياسية . وأثره فى توجيه هذا التطور لم يقف عندما أشرنا إليه فى هذا الفصل وفيما سبقه من فصول الكتاب ، بل كان لاجتهاده رَأْيَه أكبر الأثر فى هذا الأمر ، كما كان له أكبر الأثر فى غيره من أمور المسلمين .

وهذا ما سنبيِّنه فى الفصل التالى عند الكلام عن اجتهاد عمر .

obeikandl.com